

رفقًا بالقوارير

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].
قد أسمع أحيانًا مقدم البرنامج الإذاعي وهو يقول لضيفه:
أرجو إلقاء الضوء على الآية الكريمة..
وكنت أقول:

لا .. بل أرجو أن نعيش في ضوء الآية الكريمة!
إن الآية: آية: علامة واضحة .. للناظرين .. فليست في منطقة من
الضباب حتى نسلط الضوء عليها .. وإنما هي كما قيل بحق: فصّ من
الماس يشع ضياء وبهاء في كل اتجاه .. وعلينا أن نقرب منها .. لتلقى
فيوضاتها ..

وهكذا الصياد الماهر:
إنه يرقب الصدفة تومئ إليه بأشعة بيضاء .. فيهرع إليها .. ليستخرج
ما في جوفها من لآلئ.

وهكذا المفسر البصير:
إنه يقترب من الآية الكريمة .. ثم يحاول اعتصارها ..
ليستخرج من بطونها شرابًا مختلفًا ألوانه فيه شفاء للناس ..
ومن هؤلاء المفسرين: زين الدين الحنفي والذي رأينا من فقهه آنفًا ما
حبب إلينا القرآن .. وزينه في قلوبنا ..
واليوم. نفث مع «الخطيب الإسكافي» لنرى كيف اتخذ من هذه الآية

الكريمة زاوية أخرى.. فأضاف إلى زميله الجديد والمفيد.. مما يحمل المطلق على التفكير: طمعاً في الجزء.. ورفقاً بالقوارير:

•••

قال (رحمه الله):

(لسائل أن يسأل: عن قوله في خلال ذكر الطلاق والعدد: ومن يتق الله ثلاث مرات: يفعل به كذا: واختصاص كل جزء بمكان: فأوله: يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب. والثاني: يجعل له من أمره يسراً. والثالث: يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً.

•••

(والجواب أن يقال: إنما اقترن بالطلاق والعدد هذا الوعظ: لأن الطلاق: رفض حال متمهده. وقطع آمال متأكده. والعدد: باستيفائها يخلص النسب. ويصح للزوج الثاني: الولد. ولو لم يكن هذا الحد الذي حده الله (تعالى).. لكان الفساد متصلاً إلى انقضاء الدنيا.

فهو أحق الأشياء بالمراعاة. وتأکید المقال فيه والوصاة.

قال الله (عز وجل) بعد ذكر الطلاق:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢،

[٣].

أي: من تمسك بتقوى الله فيما يحل ويَعْقِد.. فإن الله (تعالى) يلقه في شدته فرجاً.. ويجعل له مما يكره مخرجاً. ويتيح له محبوبه من حيث لا يُقَدَّر. ويوجه له رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي ضِمْنَه : أنه إذا طلق لكرامة أحد القرينين لصاحبه .
 وقَارَنَ ذلكَ تقوى الله . . فإن الله يسبب له القرينة لصالحه .
 ويسبب لها القرين الصالح . . ويرزق أحدهما على يد الآخر من حيث
 لا يبلغه تقديره . ولا يدركه حسابه .
 وهذا وعد منه (تعالى) في الدنيا . . ويصح له مثله في الآخرة . .
 لأنه (سبحانه) يجعل للمتقين منجى من عذابه . وأمناً من مخافته :
 فيخرجهم من الغم إلى السرور . ومن الفزع إلى الأمن .
 ويُعَدُّ لهم من كرامته . . وثوابه . . ونعمته . . ما يكتفون به . ولا
 يحتاجون معه إلى غيره .

•••

أما قوله (تعالى):

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣] . فالمراد به :
 حال الآخرة :

إذ المتوكل على الله قد يضام في الدنيا . وقد يُقتل أيضاً . . ويجوز
 أيضاً أن يراد بالتوكل :

أن يكل أمره إليه . فيمنحه الرضا بما يصرفه إليه كالداية :

التي تسير بسير غيرها . منقادة لحكمه وسيره . .

فإذا كان المتوكل على الله من هذه صفته . . فالله حسبه :

حافظاً له ممن يحاول ظلمه . أو ينتقم منه . . إن رأى ذلك أنفع له .

فهو يبلغ مراده في الوقت الذي قدره . . إذ كان قد جعل لكل شيء

حيثاً يقع عنده . . لا يتعجل قبله . ولا يتباطأ بعده .

•••

ثم يواصل الشيخ تعليل ذكر التقوى مكررة.. مع الوعد بنعمة جديدة
ووعده جديد لمن اتقى الله في أمر الطلاق فقال:
(وأما قوله بعد عدة الحامل:
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي:
من لزم التَّقَى: سهّل الله عليه الصعب من أمره. كما يجعل أمر الولاية
سهلاً إذا قامت الأم عند ولدها.

•••

ثم عقّب حال الدنيا بذكر ما يفعله في الآخرة:
من تكفير سيئاته. وإعظام أجره).

•••

ثم يعقب الشيخ موضحاً دلالات هذه الوعود لمن ضبط أعصابه في
ساعة العسرة فاعتصم بالتقوى.. ولم يستجب لأحاسيس الغضب الثائرة
الفائرة.. فقال:
(فكل شرط من تُقَى الله (عز وجل).. قرن إليه الجزاء ما لاق بمكانه
الذي ذكر فيه).
ولما كان طلاق المرأة الحامل مر المذاق.. خصه بمزيد من الإغراء..
فعسى أن يراجع المطلق نفسه.. فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان..
لا سيما وفي بطنها جنين جاء من صلبه هو.. تحمله إليه ليكون امتداد
حياته بعد مماته.

ومن أجل ذلك.. كان التعقيب على هذه الحال الحرجة..
بغاية الترغيب.. وبغاية التهيب.. ثم وعد المتقي:
(بأفضل الجزاء.. وهو ما يكون في الآخرة من النعماء).

أما بعد:

فقد قال (عز وجل) هنا ﴿وَاللَّائِي يَئْسَنُ...﴾ بالهمز .
وقال في سورة النساء: ﴿وَاللَّائِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ...﴾ [النساء: ٣٤]
.. بالتاء ..

ونبسط هنا ما سمعته من أحد زملاء:
إن الجو في سورة النساء تشم فيه رائحة «الأنوثة» فناسب أن يعبر عن
ذلك بما يناسبه وهو: تاء التأنيث ..
أما في حال اليأس .. وتراجع معنى الأنوثة .. فقد كانت همزة القطع
بجرسها .. وخشونتها أنسب في الحديث عن مَنْ بلغت سن اليأس وما فيه
من جفاف .. وخشونة .
(سبحان) من هذا كلامه!



اليوم عاد.. كأن شيئاً لم يكن!

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿...وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ...﴾ [الطلاق: ٦].

أن يدب الخلاف بين الزوجين.. فهذا أمر طبيعي..

ولكن غير الطبيعي: أن يسمحا لأنفسهما بتدخل الآخرين.. ابتداء.

فقد يكون في هؤلاء من في قلبه دخل.. فيفسد العلاقة من حيث

نريد إصلاحها..

وهما مطالبان عندئذ: بالتححرر من الواقع المؤلم.. ليكون ذلك طاقة

دافعة.. وسوف يندم الظالم يوماً..

وعليهما أن يكونا: كَسِلَاحِي المَقْص:

قد يتباعدان.. لكنهما.. وبسرعة خاطفة: يتلاقيان.. ليقطعا دابر

كل من يريد أن يتدخل «بينهما» بسوء..

إن لوح الثلج البارد.. الفاصل بينهما.. يجب أن يذوب.. ثم يملا

هذا الفراغ بكل ما هو «معروف» من الكلم الطيب والعمل الصالح..



وتتحمل الزوجة الصالحة المصلحة مسئولية هذه المحاولة العائدة بالعلاقة

إلى صفائها الأول.. وذلك: بالصبر.. بل بالاصطبار. مغالبة لانفعال

الزوج.. وذلك خيرٌ لها وأهدى سبيلاً من أن تعود إلى بيت أمها مهزومة..

كاسفة البال. قليلة الرجاء!

إن عليها أن تختار اليوم.. من اختارها بالأمس. وفاء وبراً.

ومن الراشدات المسكات: بعروة الزواج الوثقى.. تلك الزوجة التي
 قرر زوجها أن يعتزلها تمهيداً لطلاقها. وصار أمرها معه:
 كلما حاولت أن تطيل الحديث.. اختصر!!
 وقد كان هناك حل أجني لهذه العقدة وهو:
 مخاطبة تلك المؤسسة الغريبة والتي تقوم بتأجير مستمعين ترسلهم لمن
 يكونون على مضض ويريدون ناساً «يفضضون» لهم بما في قلوبهم..
 لكن الزوجة المؤمنة الحصيفة.. الحريصة على «الميثاق الغليظ» أن
 ينفك.. قررت أن يكون الحل إسلامياً.. عن طريق قصيدة شعرية تودعها
 لواعج الشوق في قلبها.. مذكرة زوجها بسالف الأيام.. وما يجيش به
 فؤادها من أحلام..
 لقد أرسلت إليه القصيدة وفيها تقول:

طال السهاد.. وأرقت	عيني الكوارث والنوازل
لما جفاني من أحب	وراح تشغله الشواغل
وطوى صحيفة حبنا	وأصاخ سمعاً للعواذل
يا أيها الزوج الكريم	وأيتها الحب ^(١) المواصل
مالي أراك معاندي	ومعذبي.. من غير طائل
لم ترع لي صلة الهوى	وهجرتني.. والهجر قاتل
هل رمت أن تهوى طليقاً	لا يحول هواك حائل؟
أو رمت غيري زوجة	يا للأسى مما تحاول

(١) الحب: الحبيب.

إن تبغ مالا.. فالذي تدريسه: أن المال زائل
 أو تبغ أصلا.. فالتى قاطعتها: بنت الأمائل
 أو تبغ حسناً.. فالمحاسن جملة عندي موائل
 أو تبغ آداباً.. فأشعاري على أدبي دلائل
 أنا ما حفظت سوى الوفاء .. ولا ادخرت سوى الفضائل
 وأنا - ولي شرف العفاف -: أعد مفخرة المنازل
 فجزيتني شر الجزاء وكنت فيه غير عادل



ماذا جرى فهجرتني والحب شيمته التساهل
 عاشرت أهل السوء فاقتنصوك في شر الحبال
 ومضيت تطلب بينهم عيش المقيد بالسلاسل
 ورضيت هجر حليمة لما نزل خير الحلال
 والله ما فكرت يوماً في جفاك ولم أحاول
 فجفوت - يا قاسي الطباع - ولم تدار ولم تُحاول
 فاعلم بأنك قاتلي والموت فيما أنت فاعل
 إني أسائل: أين عهدك في الهوى؟ إني أسائل
 أعلمت ما فعل النوى بي؟ .. أم أنت ذاهل
 فأربأ بنفسك.. وأنـهـا وارجع إلى زين العقائل

وهكذا.. استطاعت الزوجة أن تحطم حاجز العزلة بهذه المناجاة.. التي
صاغتها شعراً.. فعبرت قلبه.. دون أن تمر على عقله.. فانتفض القلب
منتشياً بالوفاء.. تصنعه الزوجة صنعا.. بلا تعقيد.. وبلا تفلسف!
هذا الوفاء.. أو هذا النداء الذي عاد به إليها.. إلى العش المهجور..
كأن شيئاً لم يكن!



أما بعد:

فلماذا الإصرار على الطلاق.. بينما في أيدينا البديل؟
البديل الذي يطفى جمر الغضب فينا.. إلى أن يقضي الله أمراً كان
مفعولاً؟
لماذا كلمة الطلاق.. وفي إمكانك أن تقاطعها.. أن ترسلها إلى بيت
أبيها.. فلعل في هذا الهجران.. ما يحمل على التفكير.. ثم العود
الحميد..
ولنا في هذه الزوجة الشاعرة ما يؤكد قدرة الكلمة الطيبة على إحياء
المشاعر الراكدة.. لتصبح فيضاً من الود يحبط الله به كيد الشيطان.



من صور التحامل.. والتحايل

يقول الله (عز وجل): ﴿أَسْكَنْهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُمْ لِنَصِيْقِهِمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِستَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ۚ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝﴾ [الطلاق :

٦، ٧].

أحياناً . . نبذل طاقاتنا في التوفيق بين ما نريده . . وهو كثير . . وبين ما نستطيعه . . وهو قليل . .

وقد يتخلى عنا التوفيق . . لأسباب فوق إرادتنا . .
ثم إذا بالأمل الذي زرع . . إذا به وقد اقتلع . .

•••

نذكر هذا وفي خيالنا مشهد ربة البيت التي انتهت عدتها . وأحست
أنها غريبة في مملكتها . . تمارس واقعاً مُراً . . تعيشه وتترقب مجهولاً . . لا
تدركه!

وإذا هي تنظر وراءها . . في غضب . . وأمامها في يأس . .
ثم تجري الدموع باردة..

وعندئذ تحتاج إلى من يخفف عنها آلام الجراح . . حتى لا يكون فيها
اجترار للأحقاد . . واختزان للتشفي :

سينجلي ليلنا عن فجر معترك

ونحن في فمه المشبوب تغريد

وهنا يجيء الأمر بجبر خاطرها.. وتضميد جرحها.. بإيوائها في مسكن تختفي بجناحه.. إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.. وذلك بضرورة أن يوفر لها المطلق سكناً يؤويها.. ويحفظ كرامتها.. وليشعر الناس أن الزوج لم يكن «عدواً» ينتظر لخصمه «نائبة» فيسرع بإلقائه على قارعة الطريق غير مأسوف عليه.. ولكنها - مع الطلاق - ما تزال زوجة «بالقوة» ولم تكن قطعة من الأثاث البالي.. نتخلص منها فور استغنائنا عنها. أو شجرة طوحت أزهارها.. قبل أن ينضج الثمر!

يقول الله (عز وجل):
﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]

أسكنوهم: ولا تقول الآية الكريمة: أسكنها.
لأن الإسكان: مسئولية المجتمع كله.. والذي يتأثر حتماً.. ولو على المدى البعيد.. حتى بالشرح الصغير يمتد في جداره!
وتلك هي صورة التقوى العملية.. والتي كرر الأمر بها في الآيات السابقة.. ويتحمل المطلق مسئوليته الضخمة:

ولا تكفي دموع التماسيح.. ليكون القول عسلاً.. والعمل جبلاً!
إنه وبعد هذه المعاشرة الطويلة.. وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً.. لا يكفي أن يكون رد الفعل فقط قولاً حسناً.. وإنما سكناً..

لا بد من تقدير عملي يجبر كسرهما.. وبخاصة في زمن العدة التي

يوضع فيها الإيمان على المحك ..



على أنه بالتكليف بإسكانها .. لا تُرهقُ من أمرك عسرا:
فالإسلام لا يطالبك «بشفقة مفروشة» ولا بجنة معروشة!
إنما:

من حيث سكتكم .. من وجدكم:
بعض مكان سكناكم: ولتكن غرفة معزولة في ناحية ..
(من وجدكم) على قدر طاقتكم المالية ..
واختيار سكنها قريباً للمطلق .. أدعى لرعايته لها .. أذ يكون قريباً
منها .. ولعله يسمع أنين ولده .. أو يتسمع حركتها الدائبة في تمريره فيحن
إلى أيامه الخوالي .. شفقة عليها .. براً بولده وولدها ..
ولا تمن مستكثراً حقها في السكنى .. فهو بيتها .. كما هو بيتك ..
بل ربما كان حقها في السكن أكد من حقك مهما كان معك من وثائق
التملك .. حتى قال العلماء:
(إذا كان المسكن لا يسع مبيتين .. خرج المطلق .. وبقيت المطلقة)
ثم قالوا:

(تجنب المقاربة في المبيت إذا كان الطلاق غير رجعي)
وذلك فراراً من الوقوع في الإثم المتوقع.
أما الرجعية .. فلا بأس أن تكون قريبة منه: فهي وإن لم تكن زوجة
بالفعل .. فهي زوجة بالقوة ..
فلعل الله يحدث بعد هذه التجربة أمراً ..
لعله يراها بغير العين التي كان يراها بها .. ثم يراجع نفسه مراجعة قد

تنتهي بمراجعتها في نهاية المطاف .

•••

واذكر أنني نصحت الزوج الذي كان حبه لزوجته من طرف واحد . .
وطالما تمردت عليه . . غير شاعرة به كرجل
تحتمي به . . وظل ممدود تأوي إليه . .
قلت له : طلقها فليست لك بكفاءة!! فلعلها بالطلاق أن تدخل في
عالم غريب تحس فيه بوحشة تجعل العودة إليك أملاً مرتقباً!
لقد كانت الزوجة هنا تقف من جمالها على جبل عال . . تطل منه
على رفيق محروم مما تتصوره أساسياً في الرجال . .
وكان لا بد من خوض تجربة تأديبها . . بعزلتها . . باغترابها . .
حتى تحن إلى الرجوع إليه . . بعدما تمرت عليه . .
لا سيما . . وأنها قد ترى زميلات لها . . سعيديات راضيات بما قسم
الله . . وقبل أن يدمرها الندم . . إذا بالنصيحة تؤتي أكلها . . وتعود الزوجة
الشموس حملاً وديعاً . .
فإذا بها تكفر عن سيئة التمرد . . بمزيد من الطاعة لزوج قرر أن
يخرجها من حياته . . فلما رأت من قوته . . وضعفها . . عادت إليه . . وكان
الظن ألا تعود . .

•••

ولكن . . قد يكون المطلق مدفوعاً بأريحية وقتية . . حين يفسح لمطلقته
في بيته مكاناً قصيصاً . . ثم تنطفئ الجذوة لبدأ في الانتقام منها جزاء ما
ضيقت عليه . . مستسلماً لمشاعر التشفي . . تتوكد في داخله . .
وهنا تمسك الآية الكريمة بخناقه لتقول له :

﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾

حذار من التحامل عليها . . وقد نهيت عنه من قبل في قوله (تعالى):

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾

وهي اليوم تقول لك:

لا تتحایل عليها بما يضطرها إلى الخروج .

إن الأريحية تفرض على الرجل ألا ينازل إلا خصمًا كفءًا . .

والمرأة ضعيفة . . وليس من المروءة أن تستعرض قواك . . أمام خصم

ليس في مستواك!

وإذا كان ولا بد من خصام . . فلننتقم من خصومنا بنجاحنا:

نجاحنا في الوفاء . . في لحظات يقل فيها الأوفياء . .

وما عاقبت إنسانًا عصى الله فيك . . بمثل أن تعاقبه بطاعة الله فيك .

ومن يفعل ذلك مع مطلقة . . فأولئك تحروا رشدًا .



عندما.. نرفض فصيلة الدم الملائمة

يقول (عز وجل) في سورة الطلاق: ﴿وَاتَمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَزْعِلُّوا إِلَيْهَا أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

بعد أن قضى الزوج من العمر زمناً طويلاً في دولة أجنبية.. وبعد أن استشعر الخوف على ذريته من طفح الحياة هناك.. قرر الوالد أن يعود بذريته إلى وطنه مصر.. ليترعروا بين يديه في تربتها الصالحة. نباتاً يعجب الزراع ليغنيهم الكفار..

ولكن زوجته وأم أولاده.. عصت عن أمر زوجها. فقررت البقاء هناك.. محتمية بجنسيتها المزدوجة.. ضاربة بمصلحة أولادها عرض الحائط..

واتصل بي الزوج من هناك لأرى في القضية رأيي.. ولم أشأ أن أعالج القضية الشخصية المعروضة.. ولكنني حاولت أن أدرسها كظاهرة تشير إلى فتنة بعض نساتنا بمظاهر الحياة هناك.. والتي تحملهن على التضحية بمصالح الأسرة كلها. في سبيل أن تبقى في بلاد «الحرية» التي زعموا.. والمساواة التي ادعوا..

ورأيت أن الأمر يحتاج إلى وقفة تفرض علينا تتبع الجذور لعلنا نصل إلى علة المشكلة.. ليكون الدواء من بعد كافياً شافياً..

والسؤال هو: هل الحياة هناك على هذا النحو الذي يغري بالبقاء.. ورفض «فصيلة الدم» الموائمة.. لنستقبل فصائل غريبة.. غريبة ولو ترتب على هذا إفراغ الشخصية من مبادئها؟

هل الحياة هناك تساوي «تعرية التربة» لسنفسح المكان لأعشاب طفيلية
تمتص رحيق الحياة فينا؟

إن الأمر على ما يقول الأدباء:

(إنها الموءودة التي سئلت: بأي ذنب قتلت:

أحلام زرعت.

وأمنيّ كبار نُصِّدت.

وآمال عظام.. صُفَّت كالبنيان المرصص.. وسوف تهوي في قاع

صفصف).

لأنها لم تنفتح على النهر.. ومن ثم غرقت في المحيط!

•••

إنه التغريب.. لا.. بل إنه التخریب. والتزوير الذي تؤكد

الإحصاءات في نفس الدولة التي اتخذتها تلك الزوجة وطنًا أبديًا:

لقد زعموا أن المرأة في هذه الدولة ملكة متوجة..

وهي جنة الحياة هناك:

أ- تؤثر في مجريات الأحداث.

ب- وفي الأسواق التجارية والاستهلاكية.

ج- تمتلك نصف ثروة الرجل بمجرد الزواج..

ولكن الواقع ينفي ذلك:

لأنه لا يبدو إلا جزء صغير من جبل الجليد..

وعلى من يريد أن يعرف حقيقة المرأة هناك.

أن يغوص في الأعماق..

وقد غاص سائحون مجربون..

فماذا وجدوا:

- ١ - في حالة الطلاق لا يدفع الرجل إلا نفقة عامين فقط . . وعليها أن ترفع قضية جديدة . داخله في دوائر معقدة . . تكلفها نفقات باهظة .
 - ٢ - ضرب الزوجة هناك صار ظاهرة وهناك إحصائية تقول:
- إن ربع الحالات التي يقتل فيها رجل الشرطة ناتجة عن تدخلهم لفض الاشتباكات الزوجية التي كانت بالأسلحة لا بالأيدي . .
- إنها حضارة الأشياء . . حضارة المادة . . حضارة القوة . . إلى حد الجبروت:

والتي أشار إليها القرآن:

﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

حضارة الصناعة . . التي تريد الخلود:

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

•••

وقل معي: أين هي الحرية هناك؟

وأين تلك المساواة التي يزعمون؟

إن الحرية هناك هي: حرية الخلاعة . . وكشف الصدور . .

وأين هي المساواة التي يبتغون؟

إن المساواة لا تكون إلا بين متماثلين . . والرجل والمرأة ليسا كذلك . .

فالرجل هو القائد:

فطرياً . . بما فضله الله .

وكسبياً . . بما ينفق من ماله .

•••

ولقد يرمون الإسلام بأنه «يحض» على تعدد الزوجات ..
هذا التعدد الذي كان ظاهرة قبل الإسلام الذي تدخل فضبطه
وهذبه ..

بينما بقي في بلاد أخرى مرفوضاً علناً .. بينما هو قائم سراً عن طريق
الخليلات ..

ويا للمغرورات بالحياة في الغرب .. ويا للأزواج الذين يتفلسفون من
مسئولية اختيارهن ابتداء ..

ولقد قلت للفتى الغاضب على زوجته الناشز: لقد أكلتَ يوم أكل
الثور الأبيض:

إن اختيارنا يؤثر على أولادنا .. وعندما نختر زوجة فإنك تختار كل
مواريثها ..

ولو ظفرت بذات الدين .. ما كان هذا البلاء المبين!



وفي النهاية نشدد النكير على الزوجين معاً .. بسبب ما يترتب على
اختلافهما من آصار تترسب في قلوب الصغار الذين سيتعاملون مع الحياة
والأحياء مدفوعين بانفعالات التشفي .. والرغبة في الانتقام .. ولنا في
مشاهد الطبيعة شواهد:

فحينما تضع الضفادع بيضها في المستنقع ..
فإنها تهجر صغارها .. التي تواجه .. تجربة الحياة وحدها ..



وقد لا يهجر الوالدان ذريتهما ..
ولكنهما بتصرفهما .. وشجارهما .. الدائم .. يحدثان قلقاً في

القلوب الغضة . . سوف يلقي ظلاله الباقمة عليها:

فعندما يتشاجر الوالدان:

فإن البنت تتعاطف تلقائياً مع أمها . .

ثم تخفي مشاعر غضبها على والدها

فلا تظهرها . .

وقد تتفاقم العقدة عندها . . لتصير

مرضاً . . يرفض الزواج حتى لا يتكرر

المواقف معها . .

...

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .



من الإعجاب .. إلى التعجب!!

يقول (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿وَأْمُرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاَسَرْتُم فَمَسْرُوعٌ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

ليس على «المطلقة» من جناح فيما اعتذرت - بأدب - عن إرضاع وليدها - إلا إذا تعينت - ولم يقبل إلا ثديها.

فمن حقها أن تبحث عن نصفها الغائب حلاً طيباً.. وقد يكون وليدها مانعاً من الزواج الجديد..

وقد تنتصر غريزة الجنس على غريزة الأم.. أحياناً على الأقل.

ولكن ذلك لا يرفع مسئوليتها إذا ألفت وتخلت.. لحاجته الملحة إلى لبنها.. وإلى حنانها..

ومن أجل ذلك يتجه العتاب المباشر إليها بأن لوليدها أمّاً لم تحمله في بطنها.. ولكنها ستحمله على صدرها.. لتنوب عنها في رعايته وحمايته ورضاعته.



ويعني ذلك أن مشكلة الإرضاع وجدت حلاً..

ولكن.. إذا كانت المشكلة هي: مجموعة من الأطفال في بلد أجنبي يريد الزوج العود بهم إلى وطنهم.. إلى بيئتهم الإسلامية.. بينما ترفض الزوجة ذلك العود الحميد. مؤثرة رغبتها في البقاء في بيئة منحرفة. تؤثر على مستقبل أولادها..؟

إذا كان الأمر كذلك فإننا.. وعلى قدر إعجابنا بالزوج الغيور.. فإننا «نتعجب» من موقف الزوجة المتمردة!

ذلك بأنها لم تُدخل في حسابها مستقبل أولادها . . جاهلة بالحقيقة التي تقول :

إن الطفل يستمد سلامة النفس من والديه . .

فإذا غزاه الخوف من وراء خلافاتهما وتفرقهما . . فسوف يدفع الوالدان الثمن غالباً . .

ومن هذا الثمن: جفاف نبع الود في قلب الولد..

هذا الود الذي سوف يتسرب من «المصفاة» رويداً . . وعندما يجد نفسه ممزقاً بين والد في «قارة» ووالدة في قارة أخرى . .

فلسوف ينعكس هذا المرء وهذا العداء . . لسوف ينعكس على الطفل الذي سيتعامل مع الحياة والأحياء بروح عدائية . . متوترة توترًا من جنس ما فعل أبواه .

وحتى إذا كانت عواطفه «وردية» فإنه لا محالة معبرٌ عنها بالتطرف :
بالتطرف : على وجه التفريط . . فيكتم مشاعره التي تسفر في النهاية عن عقد نفسية تتحكم في مصيره . .

أو بالتطرف : على وجه الإفراط . . وذلك بالهجوم الكاسح على كل شيء . .

وعلى التطرف مزيد من التحايل .. ليهزم الآخرين ..

وهو عندئذ منطقي مع نفسه :

فما دام الحائط الذي يحميه بات مائلاً . . فقد خسر الأمن الذي يحاول حرمان الآخرين منه . دَيْنًا واجب السداد!



ونعود لنناقش الزوجة الهاربة الحساب :

كانت هناك زوجة حاكم لأقوى دولة: همست في أذن من كانت
بجوارها في حفل عام:
قائلة:

إن ما يحدث في بيتك أهم مما يحدث في البيت الأبيض!
ولقد صدقتُ.. فإن مملكة الزوجة بيتها. وأهم ما فيه أولادها..
فإذا هي فرطت في جنبهم فقد باعت مملكتها بأرخص الأثمان..
على أن الفتنة بالمال في البلاد الأجنبية لا تنهض مسوعاً للاغتراب..
وهذا هو ذا شاهدٌ من بني إسرائيل على أهله.. مؤكداً جمال الحياة
في بيوتنا وإن كانت على «الثرى» مقارنةً ببيوتهم هناك.. وإن تخيلناها في
الثريا!



تقول الإحصائيات:

ثمانون في المائة من النساء الأمريكيات يفضلن البقاء في البيت على
العمل خارجه..

والرجال: يفضلن ذلك أيضاً.. وبنفس النسبة.

ولكن هذه الرغبة لم تنشأ من فراغ.. وإنما كانت لها أسبابها
المنحصرة فيما يلي:

١ - إن المرأة هناك لم تستطع التوازن بين مطالب العمل ومطالب
البيت.

٢ - ثم إن «المربيات» ومشكلاتهن وأجرهن أكثر من الراتب الشهري.

٣ - وأهم من ذلك كله: أن الطفل لا ينشأ على ما ترجوه له.

وإذن.. فليس في هذه البيئة ما يغري بالبقاء فيها. على حساب

مستقبل أفلاذ أكبادنا .

●●●

ولقد سقطت الزوجة في «امتحان الوفاء» هناك .. تلك الزوجة التي
كان زوجها يغالب سكرات الموت .. ولما ألح في طالب رؤيتها
قالت : ظالما رأيي !!

ثم رحل عن دنياه .. دون أن يحقق مناه ..
في الوقت الذي تبدو فيه الزوجة المؤمنة .. مع زوجها في السراء
والضراء .. مستشعرة نعمة الله (تعالى) في هذه المعية .. وتلك العشرة
السوية .

يذكرنا بذلك موقف ذلك الصحابي الجليل :
كان لا يملك إلا رداء واحداً : يذهب إلى المسجد ليصلي فيه ..
ثم يسرع في العودة .. لأن زوجته في الدار تنتظر هذا الرداء نفسه ..
لتصلي فيه :

هذا .. بينما الصغار يلعبون في هذا الجو الهادئ .. بلا عقد ..
وبلا تطرف ..

●●●

إن الأخلاء .. بعضهم لبعض عدو .. إلا المتقين :
فما دام الهدف واحداً .. فعلام يختلفون ؟ !
وما دام الهدف هو : مستقبل الأولاد .. فإن الحياة كلها لا تساوي ليلة
واحدة ينامون فيها محزونين .

●●●

أجل .. إلا المتقين .. فهم معاً : على الطريق ... دينهم الوفاء ..

وجوهرهم: الطهر..

لا يغدرون ولا يخونون. ولو كان الثمن هو: ريب المنون!

...

أما هناك،

فالزوجة: فقد تخون الزوجة زوجها.. لأنه يخونها.. فتحطم نفسها
قبل كل شيء.. كهؤلاء العبيد في العصور الوسطى.. والذين كانوا
يتعمدون قطع أكفهم أو أقدامهم أو آذانهم. حتى يزهد فيهم أسيادهم؟!
أو كهؤلاء الأزواج الذين كانوا يقطعون آذانهم حتى يعير الناس نساءهم
بأنهم زوجات هؤلاء المشوهين..

...

أما في الإسلام.. فما أسعد الزوجان بعلاقة لا تنفصم عراها..
جوهرها الحب العقلي.. الذي يبقى مهما جار الزمان.. وتغير
الخلان.. وهو كسب لو تعلمون عظيم.



الوالدان.. بين الإلزام والالتزام

يقول الله (عز وجل):

﴿...وَأِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِستَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى * لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٦، ٧].

إذا فشلت تجربة الزواج.. فلا ينبغي أن يكون ذلك على حساب الأولاد..

فليس من الإنصاف أن يخطئ الوالدان.. ثم تدفع الذرية «فاتورة» الحساب!

وإنما الواجب أن نضعهم في أعيننا.. وأن تكون مصلحتهم شغلنا..
ولا يجمل بنا أن نتركهم في مهب الرياح حيارى.. يواجهون المستقبل وحدهم.. فلا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا..



إن مستقبل الأطفال مسئولية الوالدين معاً..

وأهم مجالات المسئولية هنا:

النفقة.. والإرضاع:

أما النفقة فإلى الوالد.. وأما الإرضاع.. فإلى الوالدة:

يقول العلماء:

(لما كان الولد في بطن أمه مدة الحمل . . لا خروج له منه . .
 عيّن (تعالى) على وليه النفقة .
 فلما وُلِدَ . . وكان يتمكن أن يتقوّت من أمه . ومن غيرها .
 أباح (تعالى) الأمرين .
 فإذا كان بحالة بحيث لا يتقوّت إلا من أمه . . كان بمنزلة الحمل . .
 وتعينت أمه طريقاً لقوته^(١) .
 وإذن . فقضية النفقة والإرضاع . . يجب أن تحتل الأولوية . .
 في جدول أعمالهما . . بعد انفصالهما !



إن المطلق مأمور بالنفقة على مطلّقه . لا سيما إذا كانت تحمل له
 ولده . . وهو امتداد حياته بعد مماته . .
 تحمله وهنّاً على وهن - وباسم المصلحة الشخصية فهو مدعو إلى
 الإنفاق عليه . . ثم على تلك التي تعاني في حملة ما تعاني
 (حفظاً للقلوب . وإبعاداً للشقاق بعد الإيحاش .
 بالطلاق . . لئلا يعظم الكسر والوحشة)^(٢) .



ولأن النفوس في مثل هذه الظروف . . تكون أسيرة الانفعال . . مهياة
 للعدوان . . فإن الحق (سبحانه وتعالى) يأمر الزوجين :
 أن يعقدا «قمة ثنائية» . . تدور على محور العفو والتسامح . .

(١) تفسير السعدي .

(٢) البقاعي .

وذلك قوله (تعالى):

• وأتمروا بينكم بمعروف ﴿٦﴾ [الطلاق: ٦].

المهم أن يكون هناك تشاور: أخذ ورد:

فلا يماكس الأب.. ولا تعاسر الأم..

لأنهما شريكان في الإشفاق عليه:

لا يشتط الوالد في الشح.. ولا الأم في الحرص..

وعليه أن يسكنها ويرعى شئونها..

وفي مقابل ذلك.. عليها أن ترضع ولدها: هي بالذات كما يقول (عز

وجل):

• والوالدات يرضعن أولادهن ﴿٢٣٣﴾ [البقرة: ٢٣٣].

•••

وهنا حقائق لا بد من إحاطة الأم بها.. حتى لا تسيء استغلال حق

الاختيار:

فإرضاعها ولدها يحقق:

نشوء الولد نشأة سليمة بهذه الرضاعة الطبيعية التي تكسبه قوة.. ثم

تزوده بالمناعة الواقية من الأمراض.

بالإضافة إلى تزويده بالأمان والحنان.. وهما أربى في الميزان من كل

غذاء.

ثم هو يقي الأم نفسها من أخطر الأمراض.. إلى جانب التخلص من

فائض اللبن الذي قد يرتد نكسة صحية..

•••

ومن لطف الله (تعالى) أن حدد المعالم.. اتقاء المظالم..

ولم يتركها لتقدير أحد الطرفين ..
وقد قال الفقهاء هنا:

(إن كان الولد يقبل غير ثدي أمه .. لم تُجبر على إرضاعه .
ويُسترضع له غيرها .

وإن كان لا يقبل إلا ثديها .. ويرفض ثدي غيره .. أُجبرت على
إرضاعه ..

وفي الحاليين .. لا بد من أن ترضعه .. وفي أيامه الأولى - «اللبأ»
وهو: باكورة اللبن الذي لا قوام للولد غالباً إلا به .. وهو ما نسميه
«المسمار» ..

وإذ يفضل الإسلام معنى «الالتزام» على معنى «الإلزام» فحبذا لو
التزمت المرأة بذلك أدبياً .. بدل أن يُفرض عليها .. وإذ يتلطف بها الإسلام
فلم يوجب عليها الرضاع حتى لا تضيق عليها فرصة الزواج من آخر .. إذ
يفعل الإسلام ذلك .. فعليها أن تكون عند حسن الظن بها متسامحة ..
والله من ورائها .. عليم بحالها .. وقادر على إنصافها .

•••

ثم تعاتب الآية الكريمة المطلقة التي قد تُرجَّح مستقبلها على ولدها ..
بقوله (عز وجل):

﴿وَأِنْ تَعَاَسَرْتُم فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

إن المقصود بالمعروف هنا هو:

التشاور:

مع النفس .. بالخلاف

ومع الغير .. بالإنصاف

ومع الحق.. بالاعتراف
على أن يكون «بينكم» بلا تدخل من أحد.. فربما كان الانفراد أعون
على التصالح.. ثم التصالح.
ولاحظ دلالة حرف الشك «إن».. وما يشير إليه من استبعاد التعاسر
بينهما..

ولكنه على أي حال: أمر متوقع..
فإن حدث المحذور: فتأكدًا معًا أن الولد لن يضيع.. بعد أن تخلص
عنه والداه..

وسوف وبالتأكيد سوف تحتضنه أم أخرى لم تلده.. أي أنه لن يموت
جوعًا إذا تخليتما عنه..

وبالذات يتجه إلى الأم نسبة من العتاب أكبر:
لأنها أمه التي جاء هو من تراثها.. ثم تركته مهملاً.. منطلقة
هائمة.. تبحث عن نصفها الضائع؟!

وقبل أن نسرف في لوم المطلقة هنا.. فلا بد من رجوع ذلك إلى المطلق
الذي لم يقدر عواقب الأمور.. حين وضع المسكينة بين شقي الرحن:
بين الغضب من الماضي.. والخوف من المستقبل..
ومن مجموعهما تتمزق المطلقة.. ولم تعد صالحة لاتخاذ قرار سليم.



مسئولية الوالد عما ولد

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

«... وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حِمْلًا فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فِى شَرْعٍ لِّدَى أُخْرَىٰ ۖ لَيْفَق ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيَفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۖ» [الطلاق: ٦، ٧].

أحياناً نرغمنا الظروف على قبول الحلول الصعبة.. ومحاولة التكيف مع من يقسون علينا..

وأية لحظة أقسى من تلك التي تتأهب فيها المطلقة للرحيل من بيت.. كانت فيه سيده..

ثم هي اليوم واقعة تحت رحمة من يقطر العسل من شفثيه.. بينما السكين في يديه؟!

إنها تسمع كلاماً.. هو في الواقع «مصيصة».. أو عصاً يتوكأ عليها..

يدق بها الأبواب.. أو «سنارة» يحاول أن يقتنص بها ما يريده لنفسه من متاعها؟!

•••

والآية الكريمة هنا تقطع الطريق على مثل هذه المحاولات الماكرة..
أمرة بعقد «قمة ثنائية» تضم الزوج والزوجة.. ثم تضع النقاط على الحروف محملة مسؤولية الأولاد في رقبة كل من الوالد والوالدة على سواء:

أما مسئوليته فهي الإنفاق..

وأما مسئوليته في الإرضاع..

والمفروض بحكم غرائز الأبوة والأمومة أن تمضي الأمور في خطها الطبيعي.. ليبذل الطرفان ما تملي به الفطرة.. طبعاً.. لا تطبعاً..

فإذا لم يتيسر ذلك فهنا يكون الملام.. ويكون العتاب:
عتاب كل فيما يخصه:

فإذا اعتذرت الأم عن إرضاع فلذة كبدها. والذي أخرجه القادر سبحانه من بين ترائبها..

إذا طاوعها قلبها.. فذلك حقها عدلاً..

لكنها بمقياس الفضل: لم تفعل أجمل ما يليق بها.. فهي ملومة..

وعليها أن تعلم جيداً أن ولدها لن يموت من الجوع.. فسوف يحرك (سبحانه) عاطفة الشفقة عليه - في قلب امرأة «أخرى» لم تلده!!!

•••

وإنما خُصّت الأم بمزيد من العتاب لأن مسئوليتهما أشد من مسئولية الوالد ومن ثم.. كان عليها أن تؤثر الفضل:

فإنها مطالبة بالبذل..

والمبذول هنا هو: لبنها..

وفي ذلك مصلحتها الشخصية أولاً.. لأنها إذا لم تتخلص من اللبن أضرها ذلك..

وإذن ففي بذله رحمة بها.

ثم هو مبذول لولدها.. التي تجد متعتها في احتضانه.. والسرور لسروره..

ثم هو عطاء مجّاني لم تدفع فيه مالاً .
 ولا كذلك المبدول من جهة الوالد :
 لأن ما يبذله مال . .
 والمال في العادة مضمون به . .
 وإذن . . فمهمة الوالدة أيسر وأوفر . .
 فإن أرضعت . . فيها . . وإلا . . ﴿ فَسَرَّضْ لَهُ أُخْرَى ﴾
 والسين هنا لإفادة معنى التوكيد وبيان أن المعاصرة سوف تنكشف عن
 أم رءوم . . يسوقها الرءوف الرحيم (سبحانه) . . لترضع وليداً . . زهد فيه
 أبواه . ولكنه في عين مولاه . الذي يسخر له من يرعاه .



ومن جهة الوالد :
 فإن منصب القوامة يفرض عليه الإنفاق . . طوعية واحتساباً . .
 وإلا . . فليتحمل نصيبه الأوفى من الملام . . بما قصر وبما أضمر . .
 والآية الكريمة هنا عاصمة من النزاع بين الوالدين :
 حيث لا تعتبر مال الزوجة هو المقياس . .
 وإنما المقياس العادل هو : وضع الزوج المالي . .

لماذا؟

يجيب المفسرون :
 (إن الاعتبار بمالها يؤدي إلى الخصومة .
 لأن الزوج يدّعي أنها تطلب فوق كفايتها . .
 وهي تزعم أنها تطلب قدر كفايتها . . فقدّرت : النفقة - قطعاً
 للخصومة) .

وكانت حقاً في عنق الرجل ..
 على أن يكون ذلك كله بمعروف ..
 بما يستطيع من صور المعروف .. وما تسمح به إمكانات المطلق ..
 ويعني ذلك استشعار عظمة الله (تعالى) وقدرته ..
 وإذا كانت رجولة الرجل قد تسول له أن يظلم الطرف الضعيف ..
 فلينذكر قدرة الله عليه .. فلينفق حِسبةً ، واثجاراً لا مناً ولا غروراً ..
 وهذا هو منطق الإسلام الذي لا يقدرُ فعل الخير بحجمه
 وإنما بدوافعه النبيلة الجليلة ..
 وأين منه ما يقوله الماديون: ومنهم^(١) أرسطو الذي قال يصف فعل
 الخير:

[إن فعل الخير: أنانية مستنيرة!
 فنحن نفعله لأنفسنا .. قبل أن يكون لغيرنا .. ولإراحة ضمائرنا قبل
 كل شيء!؟].

ولكن منطق الرجل القرآني شيء غير هذا:
 فهو يفعل الخير .. لله (تعالى) وله (سبحانه وتعالى) أولاً وأخيراً ..
 وإذا نُحَسِّنَ إلى الآخرين لنسعدهم .. فلأنهم عيال الله الذين نتقرب
 إلى الله من خلال إحساننا إليهم ..
 ومن لا خير فيه لأحباء الأُمس الذين أسعدوه يوماً فلا خير فيه لأحد!



إن الناس لهم عيون .. ولكن:

(١) أحد فلاسفة اليونان وتلميذ سقراط.

ما عيون .. بلا حدقات

وما حدقات .. بلا إنسان ..

وما إنسانٌ عَيْنٍ لا يحسن إلى أخيه الإنسان؟!

●●●

وتنتهي من تأملك للآية الكريمة فلا تسمع هُجراً .. ولا ترى عوجاً ولا

أمتاً ..

وإنما هو الإمساك في هدوء .. أو التسريح أيضاً: في هدوء ..

●●●

فأما من بخل .. واستغنى .. وسول له غناه أن يطغى .. وأن

يفحش ..

فليس للأبرار إلا ما قال الحكماء:

وما شيء أحب إلى السفيه

إذا سب الكريم .. من الجواب

مُتاركة السفيه بلا جواب

أشد على السفيه من الجواب

